



ISSN: 1999-5601 (Print) 2663-5836 (online)

Lark Journal

Available online at: <https://lark.uowasit.edu.iq>



*Corresponding author:

**Prof. Dr. Ati Abiyat Razzaq
Kazem Jalil Al-Zamli**

Department of Arabic Language
and Literature

Fereydounkenar University,

Tehran, Iran

Email:

Keywords:

homeland, myth, motif,
existential impulse.

ARTICLE INFO

Article history:

Received 10 Jul 2023

Accepted 18 Sep 2023

Available online 1 Oct 2023

The Motif of Homeland in the Poetry of Dr. Rahim Al-Gharbawi: "Mazameer Orpheus" as a Model

ABSTRACT

The motif has been recognized as one of the techniques extensively explored in modern poetry. It serves as a repetition through which the poet emphasizes various psychological aspects and sheds light upon them. Moreover, it carries contextual connotations that may echo the same idea, yet often diverges from its central meaning to form an evocative significance within the context. The motifs in Al-Gharbawi's poetry, particularly those related to the homeland, encompass political, social, existential, and romantic themes. The study examines the recurring motifs and extracts interpretations related to perception and loss of freedom, as well as the poet's sentiments towards major national issues, social norms, and affectionate connections. These motifs create variations in meaning and themes within the texts, and their repetition or synonymous repetition yields significant implications that engage the reader emotionally, much like the poet's own emotional engagement with his experiences. This emphasis on repetition aims to evoke the reader's emotions, as it does in the poet himself, thus compelling him to revisit these motifs.

© 2023 LARK, College of Art, Wasit University

DOI: <https://doi.org/10.31185/>

موتيف الوطن في شعر الدكتور رحيم الغرباوي

مزامير أورفيوس أنموذجاً

أ.م.د. عايطي عبيات / قسم اللغة العربية وآدابها / جامعة فرهنكيان / طهران / إيران
رزاق كاظم جليل / جامعة الأديان والمذاهب / قم
الخلاصة:

يعد الموتيف من التقنيات التي وقفت عليها الدراسات الحديثة، إذ شكل تقنية من تقنيات الشعر الحديث بوصفه تكراراً يلجأ به الشاعر على جوانب نفسية فيضيئها، كما أنه يحمل دلالات تبعاً للسياق ربما يعيد الفكرة ذاتها وعلى الأغلب تنشظى من دلالتها المركزية؛ لتشكل في السياق دلالة موحية تتعالق مع ماورد في ذلك السياق، وقد نتج من موتيفات الوطن التي تعددت حقولها في شعر الغرباوي إلى سياسية واجتماعية ووجودية ورومانسية. وقد تناولت الدراسة الموتيفات المتكررة فيها، فأنتجت دلالات الاستلاب والضياع وفقدان

الحرية، فضلاً عما اكرى الشاعر من شعور تجاه القضايا الوطنية الكبرى والوازع الاجتماعي والعاطفي تجاه الأخ والحبیب؛ ما منح نصوصه تنوعات في الدلالة والموضوعات، وما أفاد منها خلال تركيزه على تكرارها أو تكرار مرادفها؛ لينتج منها ثماراً دلالية لمتلقيه، لإثارة عاطفته مثلما أثارت فيه مشاعره تجاه تجاربه؛ ما جعله يلح على تكرارها .

مفاتيح البحث : الوطن ، الأسطورة ، الموتيف ، الوازع الوجودي .

المقدمة :

من القيم الشعورية التي تتدفق فيها مكامن الشعرية هو الموتيف، وهو ما يمثل ترجمة لشعور وبرعم رؤيا ، يتحقق لدى الشعراء حين يعبرون عن لوعجهم النفسية، فيجعلون مفرداتهم تنتشظى إلى دلالات على الرغم من أن الموتيف هو تكرار لكنه يبقى عالقاً في أذهانهم على مدى امتداد قصائدهم، وهذا اللفظ المكرر يترجم ما يتلجلج في دواخلهم ، حتى شكّل تقنية أسلوبية تنهض بالنص لدواعي جمالية ورؤيوية ونفسية ، وقد تتبعت الدراسة موتيف الوطن في شعر الغرباوي فوجدته يأخذ دلالات متنوعة فرعية تدور في فلك الدلالة الرئيسية، وقد لمحنه في نصوص الشاعر التي تضمنت الخطاب السياسي والخطاب الاجتماعي والخطاب الوجودي والخطاب الرومانسي . وهو من الموضوعات التي لم تطرق إلا في أبحاث متعددة منها في الأدب والرسم والموسيقى، والذي يغري أن الموتيف هو حالة نفسية ورؤيوية تلمُّ بمنتجه يجعله يردد اللفظة أو الفكرة أو الصورة عندما ينتابه الشعور الذي يطغى على وجدانه مكرراً ذلك من أجل التفريغ النفسي والفكري مما ينتج دلالات يوجهها السياق الذي ترد فيه هذه الثيمات أو الألفاظ .

ولعل قلة الدراسات جعلت من الدراسة تمر بصعوبات دللها البحث والاستقصاء والتقريب، ولما للموتيف من دور وأهمية في شعر الغرباوي الذي أظهر في أشعاره موتيفات متنوعة ومنها موتيف الوطن الذي هو هدف الدراسة والذي عزز أصالة نصوصه الأدبية .

التمهيد

إنّ البناء الشعري هو ما يبعث على الجدة في تحقيق أهداف يلجأ الشاعر إلى تحقيق رسالته عن طريق إفراغ شحنات نفسية يستطيع من خلالها إبراق ما يمكن إفراغه من انفعالات داخلية عن طريق ألفاظ يطلق عنانها معبراً بها عن أفكاره ومضامين نتاجاته الشعرية ، ولا يتحقق الشعر النابض بالحياة إلا من خلال شعور حي ولغة أدبية طريفة ، وخيال واسع يبني من خلاله مضامينه متعددة الصور ، ولعل الفكرة تتمرأى في أحيان بصور متعددة ، منها : تعدد الأفكار في لفظة أو تركيب مكرر ما يمنح النص الشعري سر طاقاته

التكثيفية والتي تدع اللفظة تتكرر لكنها تلمح لمعانٍ مختلفة ينتجها السياق ، فالسياق في اللغة العربية هو حري بتوجيه الدلالة لما يشكل موتيفاً حسبما يطرحه النقاد في تعريف الموتيف الذي يعني موضوعاً أو حدثاً قصصياً أو شخصية أو فكرة أو عبارة "تتكرر في أدب أو مآثورات شعبية معينة ، والعبارة التي تعتبر موتيفاً يجب أن تحتوي على برعم أساسي تتغير فيه مركباته و أشكاله وبتغيرها تحافظ على مقام مشترك هو ما سميناه بالبرعم الأساسي" (عرايدي:127). والموتيف يمثل الحركة والإثارة والإلحاح والدافع، فهو المرأة العاكسة التي تمثل منطقة التوتر لدى الشاعر، ما يجعله يضغط عليها سواء أكانت فكرةً في تركيب ، أو لفظة أو تركيباً ينوء بمعانٍ مختلفة تبعاً للسياق الذي يرد فيه ما يفتح أفقاً لمعانٍ مختلفة، فالموتيف هو " فكرة أو جملة أو تعبير يتكرر في مرحلة ما عند شاعر محدد أو شعراء مرحلة، أو يصبح لازمة تتكرر في مرحلة تاريخية معينة"(بلاوي ، 2021، م، 290) كما أنه "إحدى الأدوات الجمالية التي تساعد الشاعر على تشكيل موقفه وتصويره في إثراء الدلالات والبناء الشعري" (بلاوي، 2012م ، 67-68). ومصطلح الموتيف مجتلب من أصل فرنسي "ويعني في الأدب الفكرة الرئيسية أو الموضوع الذي يتكرر في النتاج الأدبي أو المفردة المكررة والموتيفات في شعر الشاعر تحمل دلالات وإبحاءات رمزية وثيقة الصلة بنفسية الشاعر وتوجهاته وآرائه"(بلاوي ، 2012م ، 81).

والموتيف يعتمد على الدلالات النفسية في كل موقف أو حدث؛ ما يجعل لتكراره وقعاً معنوياً معيناً يثري النص بالدلالات المستعملة، فتكراره لدى الشاعر ليس ما تطرقت به البلاغة القديمة للتكرار الذي يسهم في توكيد الفكرة من خلال تكرار الكلمة ذاتها في سياق أو تركيب معين، إنما يمثل تكرار ذلك في تجربة الشاعر الشعرية ككل ما يمنح النصوص تعدد أفكارها حسب الواقع النفسي الذي يعيشه الشاعر في كل موقف ترد فيه اللفظة المكررة بفكرة مختلفة، وبهذا تتنوع الدلالات والمعاني ترسم الصور المتنوعة تبعاً للمواقف والأحداث التي تعبر عن الشحن النفسي لدى الشاعر بما يحمله التعبير من تكثيف وحسب السياق الذي يرد فيه .

ويبدو أن الموتيف الذي سندرسه في شعر الغرباوي يأتي بالتكرار اللفظي أو ما يرادفه في المعنى ، وبما تحمله من فكرة مختلفة عن الأولى بوصفه من "المفاهيم الأساسية في معالجة النص الأدبي، فهو وسيلة مهمة لاكتشاف أبعاد الواقعة الأدبية في التداويات الأدبية ويمكن أن يتمظهر العنصر المكرر في أشكال مختلفة ، فإما أن يكرر الدال مع مدلول واحد ، وإما أن يكرر مع مدلول يتحقق من جديد في كل مرة أو يتكرر المدلول الواحد مع دالات مختلفة"(أطيمش، 1982م، 17)؛ مما يشكل موتيفاً داخل النصوص الأدبية ،وقد وجدت الدراسة تنوع معاني موتيف الوطن واشتقاقاته في شعر الدكتور رحيم الغرباوي؛ لذا قُسمت الدراسة على أربعة أقسام؛ لكثرة ما جاء في شعره ، ومنها الموتيف السياسي ، والموتيف الاجتماعي، وموتيف النزعة الوجودية، وموتيف النزعة الرومانسية .

لعل السياسة لها دور كبير على جوانب الحياة عامة وعلى النفس البشرية خاصة بوصفها تنطلق من أزمات سياسة ما ينعكس منها على المواطنين ومنهم الشاعر بوصف السياسة "صارت جزءاً من هموم الشاعر العراقي واحتوت خيرة الوجوه الأدبية" (بوقرة، 2012م، 194)، وقد تجلى الوطن في أشعار رحيم الغرباوي بأبعد تجلياته من خلال ما يحمله لفظ الوطن ومرادفاته من دلالات معنوية يوجهها السياق .

ولما كان الوطن له قيمة كبرى لدى مواطنيه بوصفه سكن الإنسان ووسيلة عيشه وبقائه آمناً مطمئناً ولطالما دافع عنه أبناؤه وضحوا من أجله؛ كونه الشرف والمصير ، يقول الشاعر في قصيدته (الوطن)
"مسكينٌ هو الوطنُ ،

هوئِنَّا أصبحْتُ فيه محنةً كبرى

فطالما في نفوسنا لهاتُ للجاء والسلطان

ولحفنةٍ من الدولارات

أفسدَ بها التَّيْنُ كَلْتَا يَدَيْنَا" (الغرباوي ، 2022م :13).

فهو يسم الوطن من أنه مسكين ؛ لأنَّ أبناءه يعيشون محنة كبرى حيث العوز والجوع، بينما ينهب المفسدون خيراته ولطالما بعضهم لا يحمل هوية المواطنة ولا يحمل أية قيمة من قيم الإيثار تجاهه، وقد أعمت الدولارات التي لولا الوطن وخيراته، لما استلبها ما جعله يصفهم بالتنين رمز الوحشية الذي لا يشيع ولا يكل عن السلب والنهب لحقوق غيره ، ما جعل شاعرنا يضيف صفة (المسكين) على وطنه المنهوبة خيراته التي هي خيرات أبنائه التي تغتصب من غير وجهة حق .

والموتيف هو "واحد من الأضواء اللاشعورية التي يسلطها الشعر على أعماق الشاعر فيضيئها" (الملائكة، 1982م، 43)، والتي تخطت ظاهرتها في شعر شاعرنا دلالات مختلفة .

ويبدو أنَّ الشاعر في قصائد كثيرة يلمح بها لمعانٍ لا يريد أن يظهرها مباشرة، ولا سيما في موضوعات السياسة؛ ولما قال معظم شعره إبان الاحتلال الأمريكي لبلاده نراه يشير ملمحاً إلى تحرير البلاد من جور الاحتلال، فهو يقول في قصيدته راتي التي وردت في كتب الأساطير من أنها إلهة الأمومة والخصب في الأساطير الهندوسية ، وتُصوّر امرأة حامل (حرب، 1999م، 180) ، يقول :

أَيْتُّهَا الْأُمُّ الطَّمُوخُ

شَرَعْتُ تَعْتَالِكِ الْمِحْنُ ؛

كَوْنِكِ تَحْمَلِينَ وَزَرَ الْأَرْضِ

وَتَمْنَحِينَ سَكَّانَهَا طَائِلَةَ الْحَيَاةِ ،

...

فَالْقَادِمُ مِنْكَ يَبْشُرُ بُولَادَةِ وَطَنِ ،

يُؤْتِرُ أَنْ يَصْطَفَّ أَمَامَ الشَّمْسِ ؛

لِيرَقِبَ وَجَةَ الْإِلَهِ (الغرباوي، 2022م، 171).

فناه يذكر ولادة الوطن في إشارة إلى الخلاص من المحتل الذي يعيش تحت وطأته بعنمة الظلم والفقير والجور ، وتضييع الحقوق؛ ما جعل الشاعر يبشر بولادته من جديد؛ ليصطف مع الشمس التي تمثل الحرية التي تغمر الحياة بدفء شعاعها بهجة ورفعة، فضلاً عن أنه يرقب وجه الإله الذي وسعت رحمته كل شيء، إشارة إلى الخير العميم الذي يرقبه من السماء؛ ليحل الخصب والنماء، وما راتي إلا إلهة في الأساطير القديمة كان يعتقد أنها تغمر الحياة بالخصوبة والنماء .

وقوله في قصيدة (هو ذا العصر) التي يقول فيها :

إلى أين وسفينة الغربان تسري

على شاطئيك - يا وطني -

تحمُّ وبالاً

وسعينا ، لكنَّه النعام طمس رأسه في الرمال

وهالا (الغرباوي، 2022م ، 437 - 438) .

والشاعر يقصد بالغربان المحتلين مصوراً لهم من أنهم يتخذون سفنهم لاجتياح وطنه من أجل احتلاله ،
وعلى شاطئك أي نزلوا فيك، ثم يعرج على عدم الرد من قبل أبناء الوطن على الغازي، ثم يذكر موتيفاً آخر
في القصيدة نفسها؛ ليعبر عما يجول في خاطره، مما يؤلمه فيقول :

يا وطنَ المكرمات ،

قليل هم في هذا الزمان

يلتحقون بركاب المنايا

والكثير هم الصغار يلتحفون الرمالا !

أي قوم لا يستمع الصغير إلى الكبير نصيحةً

ونصيحةً الماجنين لا تزيدهم إلا خبالاً ؟ (الغرباوي 2022م، 438).

فهو ينادي وطن المكرمات وهو الوطن الذي يتسم بالأصالة والكرم، لكن يحترس بقلة الناصرين الذين
ليس لهم سوى ذواتهم، فلا أحد منهم يستمع لنصيحة الكبير حين يكون الوطن محتاج لهم لكنهم آثروا إلا أن
يكون التنصل عن واجبهم تجاهه سمة استعاروها من غير أبناء الوطن الصالحين .

ثم يكرر لفظة الوطن في القصيدة ذاتها بقوله :

يا بني وطني إننا في عدوةٍ من أمرنا

فما بالنا ؟

فالمستعمرون إنهم حلّ في أوطاننا

كذلك التابعون لا يستقيمون

وهل نلتمس من لا يستقيم الخبالاً ؟ (الغرباوي 2022م، 438).

نراه ينادي أبناء الوطن المستباح فهنا يشتد لديه الوازع النفسي للخلاص من قبضة الاستعمار، فبالاتحاد
القوة وبجذوة الوطن تشتعل النيران لتحرق أعداءه .

هنا الوطن في تكراراته في فضاء النص مثل موتيفاً تنامت فيه عاطفة الشاعر وقلقه إزاء ما يدهم البلاد العربية من سوء السياسات من قبل الدول الغربية المستعمرة ولاسيما للعراق .

وفي قصيدة (أفق من ليلك الهادي الملول) التي يقول فيها :

يا عيونَ الله ننتظرُ الغمامَ ،

يبددُ كلَّ طارقةٍ

ويكشفُ سرَّ خابيةٍ ؛

ليعلنَ للنفوسِ حقيقةَ التَّنينِ

وهو يقعي خلف سوركِ ...

يا بابلَ الأرضِ التي

مازال فيها عمرُنا الدامي السخينُ .

أنت يا وطنَ الجراح

ومأوى أحلامِ اليقين (الغرباوي 2022م ، 4508) .

فالشاعر يترجى هطول الأمل في الخلاص من التنين الذي ألقى خلف سور بابل ويقصد بها بغداد ، فهو يستوحي الماضي؛ ليلفت الانتباه إلى أهمية المعتدى عليه، وهي بابل الحاضر، فهي وطن الجراح، ولعل الوطن هنا المكان الذي صدئ بفعل الاحتلالات والمؤامرات، وحين يكرر الوطن بابل ذات العمر السخين؛ كون الموقف الذي قال فيه الشاعر قصيدته "انبثقت فيه لحظة اختلاج الشاعر ... تلقائياً لحظات بعث خلجات الخواطر المتداعية والومضات النفسية والفكرية التي جسدها التجربة الشعرية " (مغنية، 2010م ، 35) التي كان يعيش لحظاتها.

وفي قوله :

يا مُفِيقَ الصمتِ

يا سَفراً تَهْدُ الرِّيحَ

رکناً صارَ كالحجرِ الأصمِّ

الأبکم المغروس فينا

وشاهدة السنين

وقبرها ككتاهما كتبتُ إلينا حکمةَ الوطنِ الطعينِ ،

ومنهجَ الصوتِ الذي ما انفكَّ يوماً أن يبوحَ بعريه

لكلِّ أفالكِ مَهينِ .

يا ألفَ بابلِ تعترى بابي

وتنحُثُ من مرایانا سواقي الحزنِ

تعمُرُ في مآقينا حروفُ الليلِ (الغرباوي 2022م، 449).

فهو ينادي مفيق الصمت الذي شبهه بالأصم الأبکم كذلك شاهدة السنين وقبرها ، وكل من الشاهدة والقبر يمثلان مصدر شؤم؛ لذلك كتب على الأخيرة ما ألمَّ بالوطن من طعنات من قبل السياسات الهمجية والمتسمة بالظلم والقائمين عليها من الأفاكين، ثم يعطف على بابل ويعني بها وطنه ؛ ليشكل بها موتيف الوطن، معلنا فيه حزنه على بلده المضاع ، وفي القصيدة نفسها يكرر الموتيف بقوله :

يا عيونَ الله ننتظرُ الغمامَ ،

بيدُ كلِّ طارقةٍ

ويكشفُ سرَّ خابيةٍ ؛

ليعلنَ للنفوسِ حقيقةَ التَّنينِ

وهو يقعي خلفِ سورِكِ ...

يا بابلَ الأرضِ التي

مازال فيها عمرُنا الدامي السخينُ .

ومأوى أحلام اليقين (الغرباوي 2022م، 450).

فيتأمل عيون الله إشارة إلى رعايته سبحانه منتظراً الخير الوارف بالخلاص من المستعمرين، مشبهاً إياهم بالتنين الذي يقعي خلف سور البلاد؛ إشارة إلى الأطماع الخارجية التي تهتك بخيرات البلاد ولاسيما القوى الامبريالية، ثم يلتفت إلى الوطن، وقد وسمه بوطن الجراح؛ ليعبر عن ألمه تجاه وطنه المضاع.

ولما كان الموتيف هو تكرار لكن يرمز إلى الهموم النفسية ما يجعل الشاعر يكرر الألفاظ كما هي أو مرادفها والتي تمثل شغل الشاعر. ولعل كل "شعر أصيل علاقة بنفس صاحبه أيّاً كانت أشكال هذه العلاقة، غير أن كلاً من هذه الاتجاهات قد انصرف بجهده إلى ناحية في الإبداع الشعري" (فتوح، 1978، 265)، ما جعل الموتيف يمثل نقطة اهتمام الشاعر وترديده له لكن بتوسيع الدلالة أو تفريعها بما يمت إلى الدلالة المركزية للفظ، فهو رمز شعري "مرتبط كل الارتباط بالتجربة الشعورية التي يعانها الشاعر التي تمنح الأشياء مغزى خاصاً" (إسماعيل، 1972م، 198).

ومن الموتيف السياسي استطاع الشاعر أن يوصل لنا حقيقة السياسات التي ضرب أذاها البلاد ما أشعل الاقتتال والأحقاد بين أبناء الوطن الواحد، فضلاً عن استلاب الحريات والاستحواذ على خيراته ما جعل الشعب يتضور من التدخلات الخارجية ومن سوء السياسات الداخلية فيه وكليهما كانا سببا في ضياعه.

ثانياً: موتيف الوطن في الخطاب الاجتماعي

الحياة الاجتماعية تمثل أهم منعطف لإنتاج الأدب؛ وذلك لواقع الحياة الإنسانية التي ينطلق منها؛ لما لتأثير المجتمع على الأفراد ومنهم الشعراء، كما أن الجانب السياسي له تأثيره المباشر على حياة الناس بينما المخاطر التي تخلفها السياسة تؤثر تأثيراً مباشراً في حياتهم، حتى وصف كثير من النقاد أن الأدب ولاسيما الشعر يتأثر تأثيراً كبيراً بحياة المجتمع حتى نتج عن طروحاتهم مدرستان الأولى هي مدرسة الفن للفن والأخرى مدرسة الفن للمجتمع التي ترى أن وظيفة الأدب هي وظيفة اجتماعية.

والموتيف هو واحد من آليات النصوص الشعرية والذي يوظفه الشاعر في خطابه ومنها خطاباته الاجتماعية؛ لما له من فاعلية في ترسيخ مضامينها والتي يروم الشاعر إيصالها إلى المتلقي، ومن هذه الموتيفات هو موتيف الوطن، وقد أورده الشاعر الغرباوي في شعره، فأخذ ألواناً من المعاني؛ لما غزا الحياة الاجتماعية من تنوعات وتعدد في أغراضها ومواقفها ومن موتيفات الشاعر ما ورد في قصيدة رثاء لأخيه إبراهيم التي قال فيها (الغرباوي، 2022م، 80-81):

" يا مُسْمِلَ العَيْنِ بالترحال ما برحتُ تبكي عليكِ قلوبُ خانها الجأدُ
ليتَ الأعنةَ ترقى عالماً وفدتُ له الأحبّةُ ، وانسأقتُ له الخودُ
كي يغمَرَ الروحَ في دنياك أجودها نورُ الإلهِ ، ولا من عالِمٍ يقيدُ
إلّاك أنتَ زرعتَ الشوقَ في وطنٍ أمجادهُ الحبِّ والأشواقُ و الرّغدُ
أبا حسامٍ فدتكِ الروحُ بهجتها وليس يفديكِ إلا الشائقُ الرّفدُ
تأبى العيونُ ترومُ النومَ غفوتها والقلبُ يأبى عليه النائلُ الرقدُ

نجد في القصيدة رثاءً حاراً للشاعر الغرباوي، وهو يرثي اخاه ابراهيم والذي يجمعهما وطن واحد وهو البيت الذي كانا يعيشان فيه، وقد ملأه الفقيد بالمجد والحب والأشواق والحياة الرغيدة ويبدو أن الفقيد هو أكبر من الشاعر سناً، وهذه الدلالة الاجتماعية مثلتها رابطة الأخوة التي هي أصرة من أواصر الدم، فضلاً عن ذلك رعاية الفقيد لأخوته الصغار، ومنهم الشاعر التي اجتلبت هذه الروح؛ ليعبر عن إخلاصها وتفانيها لمبدأ الأخوة التي أذاعها الشاعر بجلال الكلمات وشيعها بأبهى صور الوفاء.

والتأزم النفسي امام مواقف الحياة يبعث على أن يمنح الشاعر اللفظة معنى حسبما يقرره الموقف والحدث؛ لتتسع دلالة في السياق الذي يرتجيه الشاعر؛ لذلك يذكر الشاعر الوطن مقروناً بالدموع حين تصيب الوطن الملمات، إذ يقول في قصيدته (إرادة):

فلعلّ جرحاً يرتوي منكِ اذكّاراً

أو لعلّ الورد يُملّي راحتكِ ،

أليس لنا في الروح

أن نمشي على وطن الدموع ،

أو نلتقي للقلب يوماً ، نبعثُ البشرى ؟

فوجستُ ... من ردودِ فعلكِ خيفة

وأنا البشيرُ إليكِ ،

معاصم ساعديك؟ (الغرباوي ، 2022، 416 ، 417) .

إذ نرى الشاعر يوضح لمتلقيه أن الحياة الاجتماعية ما عادت تطاق، فالمرأة الحبيبة واحدة من أبناء المجتمع التي تعاني من الجور والظلم إزاء إفرازات الاحتلال ، فالفوضى الضاربة والعلاقات بين أبناء المجتمع صارت على غير أصالتها ، وانعدام العدل وتفشيته ، فليس من أحد في هذا البلد يمكنه أن ينال حقوقه ما جعل الشاعر في وضع نفسي جعلته يحتج على الوضع الراهن ؛ ليقدّم نفسه عاملاً من عوامل تغيير الحياة، فيعيد لها أصالتها، ويرجع البسمة على نفوس الأحبة من أبناء وطنه ؛ ليعم الحب والوئام بينهم.

والوضع الاجتماعي البائس الذي يعيشه العراقيون بعدما صار الحاكمون وأعوانهم سراقاً للوطن وكأنه كنز مباح وإلى يومنا هذا ، فنراه يقول :

"يا أيُّها الوحش اللئيم

فَعَزَّتْ فَآكَ مُخَاتِلًا

وملأت جيبك من حرامٍ يُجتنى

فاضت يداك ، وأنت فردٌ ناكثٌ

عهدَ الأبوةِ والرجولةِ

والرسالة ،

والسنا .

لا يعرف الوطنَ الغريزَ مُخَاتِلٌ

ما دامَ ينهبُ دون أهليه المُنَى .

فازَ الفقيرُ ،

وذا جبينه بارقٌ بالنور

بالطهر الطهور ... " (الغرباوي ، 2022م، 535-536)

فالشاعر يأسى على واقع الحياة الاجتماعية الفوضوية التي حلت بالعراق، فقد حلَّ الانفلات وغاب القانون بفعل تلك الفوضى ما أثر مباشرة على حياة المواطن.

ولعل التلميح بالموتيف في شعر الغرباوي أخذ بعداً جمالياً أثيراً ، فنرى في قوله :

السراجُ منيرٌ

لكنَّ زينتهُ آيلٌ للنفادِ ،

فعلامِ كلِّ هذا التدافع ؟

فكلُّ يُلقِي نظرةً

ويرسمُها في لوحةٍ

على حيطانِ دارهِ المُسيِّجِ من صفيحٍ ؛

كي لا يأسفَ على ما فاتهُ من خواءِ (الغرباوي ، 2022م، 21).

فهو يشير إلى مسألة اجتماعية هي تنافس الناس في كل شيء، بينما الأعمار تنقضي ولا بد للحفاظ على إنسانية الإنسان؛ كي يتحقق العدل ، ولعل الأرزاق هي من لدن الله سبحانه مشيراً بموتيف الوطن وهو الدار الذي سيَّجه الفقر من صفيح، فهو ما يمتلكه اليوم، ولعله يحدث مفارقة؛ لأنه يدعو إلى الزهد، وهو زهد النفس بملاذ الدنيا ويلقي نظرة على داره الذي طواه كد السنين من دون فائدة سوى خراب النفس الفارغة بسبب أطماعها الدنيوية .

وفي قوله :

المنزلُ العاجيُّ سقيمٌ

فَرَوادُهُ آثروا نهبَ بريقِهِ

المُسال بالجنونِ (الغرباوي ، 2022م، 26).

فالمنزل هنا يقصد به الوطن الذي يعيش فيه فقراؤه حد السقم؛ لما يعيث به رواد حكوماته عن طريق النهب والسلب، فلم يبق له من بريق كان في أوج غناه بفعل الناهبين لخيراتته ، فأبقوه حطاماً ومرد ذلك هو العيش

بفقر وعوز. والذي يجعل الشاعر يعيش حالة ازدراء؛ لما يضر أبناء جلدته، وهم يعيشون هذا الحال المهين، كما أن فطرة الإنسان "تدعوه إلى العزة وإلى العدالة وترفض الذل والظلم" (آدرشب: 2022م : 22).

ونراه يعبر عن الفكرة ذاتها في قوله :

ولعلَّ بابلَ تستفيقُ مرَّةً أُخرى

على جراحِ الخمرِ الذي تُعنتِّقُه أمانِي الجوعِ

عند ذاكِ تنهضُ أمانيكِ بالونايَا

بينما يُقرُّعُكَ القارعونُ

ويفيضُ من حولِكَ شقاؤُهُم

ويعود - مرَّةً أُخرى - خيالُ احتكامِهِم من حولِكَ ؛

فتورقُ غبطةً وكبرياءً (الغرباوي ، 2022م , 56).

فبابل الأثرية هي ما تبقى من حضارة بابل وقصد بها بلده العراق والذي يعيش أبناؤه بخمرة الجوع، لكنه يأمل التغيير طالما أن حياة الناس، صار يتسربل فيها الألم الممض، ولعل نهضة فكرية أو نهضة تغيير في الأداء الحكومي تلوح في الأفق لعظم المعاناة التي يعيشها الناس والتي تغير حتى العلاقات الاجتماعية من خلال فتك الجوع بهم والفقر الشديد .

أما حينما يشير للعقل والحكمة التي بأمر الحاجة لها المجتمع، إذ لا تستقر إلا من ولاتها ، فهو يقول في قصيدة (هرطقات):

أيُّها الحكيمُ

الساكنُ خلفَ رمضاءِ المساكينِ

إنَّ المدينةَ تَعْمُرُ بعقلٍ ولاتِها،

وإنَّ الربَّ هو من يختارُ لها

في الأوان اللائق مَنْ به نفعُها (الغرباوي، 2022م ، 68).

فيرى أن المدن لاتعمر إلا بحكمة ولاتها ؛ كي يعم النفع والخير للجميع، وتتخلص من الآفات والشرور التي لولا الحكمة لجرت في أزقتها المحن، ولتجرع المساكين أنواع السموم، وألوان المصائب التي تفدح بهم، ما يجعل المجتمعات أسوأ حظاً في العيش والمذهب .

وفي قوله نجد المدينة (الوطن) تأخذ بعداً آخر إذ يشير إلى رفض الشاعر لما يحصل إزاء الفوضى والانهيارات العقدية التي تضرب أوساط المجتمع وما جلبته السياسات المشؤومة؛ مما خلفته من آثار جسيمة على المجتمع، فنراه يقول في القصيدة ذاتها :

تحطمت جميع منحوتاتك

أيتها المدينة الفارهة الملاذ ،

سيهدم سكانك البيوت ؛ ليعمرُوا الأسوار .

فهل الأرض دنسها رُعاتها

بنكتهم عهد الأبد (الغرباوي، 2022م ، 68) .

فعهد الأبد هي الاستراتيجيات الكبرى من معتقدات وأعراف ، ولعل ما حطته يد الإرهاب من منحوتات ومساجد ومقامات وأديرة قابلها تحطيم القيم والمبادئ والشعائر التي ماتزال العولمة سادرة في غيرها، فيوماً ترسل قوى الإرهاب وآخر لبث سمومها ضد المجتمع عبر وسائل الاتصال والبرمجيات والمواقع الاجتماعية، فهي "تزرع توازن الأنظمة بحيث تنتهي بها إلى إحداث فوضى ، وتوجد نظاماً دولياً متأرجحاً يسوده التخبط ، لأنَّ المنتظم أصبح بلا رادع أو قيد بسبب الانتشار غير المُنظم للسلطة (الكعبي، 2022م، 14)

وفي قصيدة تسويد إذ نرى الشاعر يوظف تسويد البطل الأسطوري الذي "استولى على عرش مملكة النوبة ، ونشر فكرة الزواج ، وتقديم القرابين للآلهة" (حرب، 1999، 134) بوصفه بطلاً منقذاً. إذ قال فيها:

لعلك تُشرق بالمجد والظفر ،

ولعلمهم يشرقون بالمجد والحياء .

أنز قلبي من طريقهم

ذَلِكَ الْمُعَبَّدَ بِقَرَابِينَ الشَّهَادَةِ وَالْفِدَاءِ ، فَمَا زَالَ الْوَطْنَ مُرْمَدًا بِهِمْ ،

وَنَحْنُ مَنْ نُضَجِّي لِأَجَلِهِ لَا مِنْ أَجْلِهِمْ ،

أَوْلَاءَ حَفْنَةُ الْوُؤَاءِ ،

إِنَّكَ مَنْ نَصَرْتَ الْقَوَانِينَ وَشَرَّعْتَ الزَّوْجَ ؛

كَوْنِكَ تُدْرِكُ أَنَّ الْحَيَاةَ تَكَثَّرُ

وَأَنَّ لِلْوَطَنِ دِمَاءً تَسِيلُ

مَعَ الْكِبْرِيَاءِ (الغرباوي ، 2022م ، 144).

فالشاعر يخاطب تسويد مترجياً منه أن يشرق بالمجد والظفر؛ كونه البطل الذي لا يضاهاى ولعل المؤمنين يشرقون بالنصر، فالوطن حزين بتضحياتهم؛ لأنهم فقدوا الحياة، فصار حزينا بهم، ثم يكرر الوطن الذي تسيل دماؤه، إذ يعد المضحين من المؤمنين ، هم جزء منه ؛ فضلاً عن أنه يحيا بالكبرياء، ويبدو أن التكرار هنا للفظة الوطن حملت معنى مضاعفاً بوصف الشهداء هم من جسد الوطن الذي يرقل بالكبرياء، ولعل الحياة الاجتماعية بسبب الحروب صارت تنبض بالحزن، وأن الوطن جريح بسبب حزن المجتمع .

ونرى الشاعر في أكثر من قصيدة يوظف الأسطورة بوصفها خصيصة سحرية للغة ، وقد أفاد الشعر منها "فهو السليل المباشر للأسطورة وابنها الشرعي ، وقد شق لنفسه طريقاً مستقلاً بعد أن أتقن عن الأسطورة ذلك التناوب بين التصريح والتلميح ، بين الدلالة والإشارة " (السواح ، 2001م، 22) ؛ لذا نجد التصريح والتلميح يعززان دور الموتيف في النص حين يتناوب ما بين الدلالة والإشارة في إبراز المعنى مرة ، وإخفائه مرة أخرى ، ومن ذلك قوله :

أَيُّهَا الْأَرْضُ بَرِيثِي

مَا مِنْ خِيَارَاتٍ هُنَاكَ ،

إِنَّ مَدَائِنَنَا لَتُدْعُوكِ

أَنْ تُقِيمِي شَعَائِرِكِ فِيهَا ،

وَتَنْدِيبِينَ مَاءَكِ يُغَطِّي عَرُوشَنَا ؛

من زرقة السماء (الغريباوي ، 2022م، 165) .

فالشاعر يستحضر بريثفي الأرض الأم في أساطير الفيديا ، زوجة السماء الأب ، وقد كان النبات ثمرة التقائهما بواسطة المطر. فمدن الشاعر إشارة إلى موطنه من أنها تدعو بريثفي أن تقيم شعائرها (" حرب ، 1999م ، 105) ، وتندب ماءها يغطي عروش الشاعر وسكان مدنه؛ كي تزدهر أواني الحصاد ولعل الضمير (نا) يمثل المجموع، (المجتمع)، أما أواني الحصاد يمثل ظاهرة اجتماعية قوامها الفلاحون الذين ينتظرون محاصيلهم .

نستشف أنّ الموتيف الاجتماعي أخذ صوراً متعددة منها المنزل الجامع للحب والحنان والآخر الأثر الذي أطاح بالوطن وبأبنائه ، وفقدانه الذي تبعه فقدان الحرية، كما أنه الحزن الذي ذرف دموعاً على أبنائه ، كما أنه مثل المكان لإقامة الشعائر فيه .

ثالثاً : موتيف الوطن في خطاب النزعة الوجودية

يبدو أنّ الوجود يعني " الحضور الفاعل للكون والإنسان ، فأصبح لفظ الوجود رمزاً اجتماعياً للكون بكل ما فيه، وللفرد (الإنسان) بوصفه رمزاً في الفكر البشري دالاً على قيامه وبذلك فإنّ لفظ الوجود أصبح يدل على الكون من ناحية ويعبر عن عالم الفرد الخاص من ناحية أخرى " (الاوسي ، 2000م، 157) ويبدو أنّ " الأدب الوجودي ... يعد بوجه عام أكبر معبر عن الإحساس الحاد بإشكالية المصير الإنساني ... ولعل شعراءنا وجدوا في التيار الوجودي ملاذاً ، ولاسيما في إشاعتهم لمقولات الصدق والرفض والاهتمام باللاشعور والإنسان الداخلي ، وقد مارست مفاهيم الوجودية سلطتها على تجارب الشعراء في طباعهم وعبثهم ورؤى اللامعقول فيهم " (الايوسي ، 2000م ، 159) ، ولما كان الشعر حالة لاشعورية وشعورية في الوقت ذاته، فهو يرتبط بمشاعر الشاعر وقضاياها واعتقاداته ومن بعض هذه القضايا هي قضية الوطن التي ينظر لها من الأساسيات لدى الشعراء، إذ يملئها عليه ارتباطه الأصيل به وثقافته "التي تملئها عليه ، ولعل ما يسبقها لاشعوره المرتبط باللاشعور الجمعي لأمتة الذي يحتم عليه ارتباطه بالأرض التي عاش فيها ... والشعر في نشأته ينشد للوطن ، وما المقدمة الطللية في الشعر الجاهلي إلا دليل على غريزة وطبع يدفع بالإنسان أن يتوق لذكرياته في المكان الذي نشأ وترعرع فيه ، فضلاً عن أنّ الأوطان هي مصدر العيش والراحة والإلفة بين أبناء المجتمع" (الغريباوي ، الكون الشعري ، 2022م ، 30) .

وحيثما يحل القهر والحيف على الوطن وأبنائه ؛ ما يجعلهم يعيشون اغتراباً وضياعاً يؤجج المشاعر، ويجعل من الحياة ضيقة كليلة ما يحدو بالشاعر صاحب الأحاسيس والانفعالات؛ ليعيش الاغتراب النفسي ، ومن بين الشعراء الشاعر رحيم الغرباوي ، فقد شاع في أشعاره نزعة الوجودية تجاه ما يلاقيه الوطن من تدخلات خارجية ، اذ يقول في قصيدته (أفق من ليلك الهادي الملول) :

وشاهدة السنين

وقبرها كنتاجها كتبتُ إلينا حكمةً الوطن الطعين ،

ومنهج الصوت الذي ما انفك يوماً أن يبوح بعريه

لكلِّ أفاكٍ مهينٍ .

يا ألف بابل تعتري بابي

وتنحُّ من مرايانا سواقي الحزن

تعمُر في مآقينا حروف الليل

والوجر السخين ! (الغرباوي ، 2022م، 449) .

ولعل الاغتراب واحد من مظاهر النزعة الوجودية, إذ يرى أنه يعيش في وطنه مغترباً ضيق النفس، فهو يأخذ حكمته من وطنه الطعين الذي ليس له من ناصر عند اشتداد البلوى عليه، وحين يكون الوطن كذلك يعيش أبنائه همياً وقلقاً فضلاً عن الاضطراب الفكري الذي يدهمه، والشاعر يدعو إلى أن يفيد الناس من الحكمة والموعظة الحسنة . بينما الوطن هو ما يحمل الحكمة بوصفه موئل الثقافة والعلوم والمعارف، فلا بد أن يتعلم منه أبنائه، وهذا هو السمو الذي يبعث على أن يستعين الإنسان بالصبر، ويفيد من الحكمة والموعظة .

أما في قوله :

الليلُ في تشرين

عجَّ في قِطْعٍ مِنَ الظُّلْمِ ,

وتسرخُ الطرقات في مسراها غرباناً

كبابل تغلق الأبواب ,

...

ومدفأة الغريب

هناك في المنفى ترفُّ دموع دخانها سُحباً

ومهرجانات الأنين تضيء على الشِّعاب

لعلَّ ذُراكِ يابوطناً سيكرمهم بما مَلَكْتُ (الغرباوي ، 2022م, 472).

فنرى الشاعر يعيش الاغتراب لكنه يتأمل من وطنه صاحب المكرمات، هو ما سيمنحه الأمن والاستقرار؛
كونه الكريم على الجميع، فهو المعطي والمُجازي، وهو الأب الرؤوم بأبنائه.

أما صورة الوطن الضائع الذي يمثل ضياع ابنائه في قوله :

تُدقُّ الطبولُ

وتقرعُ خريفها الفصول

وما من وطنٍ

سوى وطنٍ تَلَفَّتْ من حوله

خيولُ العتاةِ

وسمَرَ أبوابه جُدَّتْ فانيه

فأينَ الربيعُ , وقد خلتُهُ

ربيعاً

ولكنَّ عتَبَ على الوهنةِ الرانيةِ؟ (الغرباوي ، 2022م, 501-502) .

هنا يشير الشاعر إلى صورة ضياع الوطن الذي بضياعه يضيع أبنائه، وما الطبول إلا إنذار لحدثٍ عادةً ما يكون حرباً، كما أن الخريف يشير إلى الجذب، وخيول العتاة تمثل الغزو والحرب على الوطن أيضاً، والجُدث الفانية وغياب الربيع جميعها تشير إلى الضياع والرهبة .

ويمكن إيراد مرادف الوطن؛ كونه يحقق فكرته ... وفي الموتيف تأخذ الكلمة المترادفة دلالة تنوء بشيء إلى الدلالة المركزية بوصف الكتابة الشعرية إعادة بناء اللغة (حفيظ، 2015م، 136) فالشاعر قد استبدل لفظة الوطن بلفظة البلاد والتي جعلها تنحى منحىً ذا دلالة اجتماعية ، إذ قال :

وأنا المسافرُ في بلادٍ لستَ تدري

أين أشواقي توارثتُ ؟ وأنا المقيمُ على شفاهِ القلبِ

أستدعي سناك ،

وأدوفُ جناءَ أُلطِّحُ فيه حائطَ الذكرى

لعلَّ عُمرَكَ يزدهي خيراً ،

وتنسى أنني أحببتُك الحُبَّ الكبير (الغرباوي ، 2022م ، 15) .

ويبدو أن البلاد هنا وظفها الشاعر للحديث عن ضياعه، وهو يهجس بما خلفه حبه الكبير الذي أضاعته ظروف الحياة الخانقة .

ولعل الوطن المضاع شاع في شعر الشاعر؛ لما تكالب عليه حتى بعض أبنائه الذين يدعون نصرته، فهو يقول :

فما زالَ المفسدون يلحقون مواعينَ فقرائنا !

والزائلون ما اكتالوا إلا من أرجاسهم قبَحهم

ومن الوطن المغلوب أنينَ سقامه .

يموتُ ببطءٍ من يغسل تاجَ الملوك ؛

من أجل حفنةٍ من الدولارات

بنانة (الغرباوي ، 2022م، 442) .

فالمفسدون هم من أبناء الوطن ، وحين يكون ابن البيت طامعاً في خيرات بيته لا يكون إلا الضياع آفة ذلك البيت، إذ لا يبقى منه سوى ترابه وهذه هي محنة الوطن الذي تكالبت عليه قوى الشر من كل حدبٍ وصوب، وما على الشاعر إلا أن يعيش حالة الضياع المشوب بالألم، وهو يستذكر الموت، لأنَّ وطنه مستباح، مغلوب على أمره .

والشاعر في موتيف الوطن وفي نزعتة الوجودية يصارع القهر والاستبداد مادامت القوى الخارجية والداخلية تهلك الحرث والزرع، ولم تبق سوى الجراح ما يضطر الشاعر يستعمل الموتيف بوصفه وسيلة من وسائل الصراخ من خلال ما يتكرر من الألفاظ من أجل أن يوزع الأمة فيما بينها (الجنابي، 2014م، 120) .

ولعل الشعر "صورة ناطقة بمعنى أنه لغة تنقل إلينا بطريقة مباشرة بسيطة خبرات لاسبيل الى التعبير عنها في لغة الحديث العادية" (زكريا ، دت، 128- 129) ؛ ليوصل رسالته لمتلقيه وهو يعيش المعاناة تجاه القضية التي يحاول حث النفوس في التصدي من أجل وطن ينزف جراحاً وألماً .

أما نبوءة الشاعر وهو يعتلج المرارة والألم؛ ليبشر بنهاية الضياع في قوله :

سيُسدلُ الستارُ

يا مُعذِّبي

وتبتدئ بين شعاع مقلتيك

قصة المدينة

التائهة الأقمارُ

عند ذاك تورقُ النجومُ

بالألحانُ ،

وترتمي على يديك سفنُ الخلجانُ

وتستفيقُ في لظى عناكبُ الوديان

حينها ستبتدئ حكاية الأوطان (الغرباوي ، 2022م، 465).

الموتيف في أحيان يشكل رمزاً ناطقاً في القصيدة يستشرف به الشاعر المستقبل ، ولعل الموتيف فيما يبدو "قائم بلا ريب على عمقه وعلى عظمة الفكر فيه" (فتوح، 1978م، 45) ، فحين يصور لنا الشاعر المدينة المضاعفة بوصفها موتيفاً من أجل أن يشكل صورة من صور الأسى الذي يحيط بمدن الوطن حيث أقمارها تائهة من فرط ما تناله من قسوة وبؤس شديدين، ما جعل الشاعر يتنبأ بالخلاص، وأنَّ شرور المحتل وأدناسه ستلتفت حوله وتطيح به ، بعد جلب الخراب والدمار لتعود الحقوق لأبناء الأوطان الحقيقيين .

وهكذا فالشاعر يكرر صورة الوطن بين نزعة الضياع وبين الخلاص من ربقة المستعمرين له . ويبدو أن التكرار لا يعد من الإطناب في النصوص الشعرية فيما نطلق عليه الموتيف بوصفه تجربة خلاقة تنماز ببناء دلالي جديد وأفق يتجاوز دلالاته الأولى، إذ "لم يعد المعنى بمباشرة وبساطة تناوله كافياً لخلق الشعر بل لابد من أفق أبعد يتجاوز هذه العلاقة البسيطة؛ ليصل إلى الدلالة أو ما يعادل المفهوم في نقدنا القديم ... " (أمين، 2010م، 25).

ويبدو أنَّ شاعر الموتيف حين يكرر كلمات أو ما يرددونها هي في ذاتها جزء من مفردات عاطفته وأفكاره، فحين يلح عليها تحدث أثراً على جمهور القراء، إذ " يتحسسها القارئ في الدرجة القصوى من الاتقاد والتأجج والعنف ، فكأنَّ الشاعر يمعن في القسوة على ذاته ، ويتقنن في تعذيبها برميها في أتون قضية جوهرية بحيث يضحى الشعر كله معاناة مريرة لها ومكابدة مرهقة في التعامل معها ... ومن ثم في تجسيدها رؤى وكشوفات خالصة من كل ما كان يسمها من لبس واضطراب " (مغنية، 2010م ، : 133) ؛ ما يجعل التقارب أكثر تفاعلاً بين الذاتي والموضوعي، فلا يعود هناك أي فاصل بينهما، وتصبح القضايا الكبرى هموم الشاعر ومدعاة لشعره لما هي قضايا البلد المصيرية .

نخلص أنَّ الوطن شكّل موتيفاً لنزعة الوجودية، فهو موطن للاغتراب والضياع وأزمة الوجود وعاطفته تجاه قضايا وطنه الذي أرهقته الملمات والمحن حتى يرى الإنسان أنَّ وطنه مضاعفاً بيد الغرباء.

رابعاً: موتيف الوطن في خطاب النزعة الرومانسية

إنَّ الرومانسية هي توق الذات للحياة وللطبيعة، ولكل ما يشعر بالجمال والتي غالباً ما يتدخل الخيال في رسم الصور التي يحلم بها مترجياً تحقيقها ؛ ليعيش عالماً من عوالم المتعة التي تضيء على وجدانه ألواناً من الشعور الجميل .

والرومانسية في الشعر تُلجئ الشاعر التنويع في مفرداته، ولاسيما في موتيفاته التي يلح على إبرازها بوازع من التعبير النفسي عن حالة تلح عليه؛ لذا نرى موتيف الوطن لدى الشاعر رحيم الغرباوي والتي مثلت مدعاة تحتاجه النصوص الغزلية أو ما يطلق عليها (النسيب)، لتتشكل المفردات مع تشكلات المشاعر حين تكون جياشة، فضلاً عن تنوعها انطلاقاً من مبدأ تجديد المفردات لتظهر مشحونة بالدلالة العاطفية وما تحمله من إحساس ذوقي يمكنه التأثير بشعور متلقيه؛ ما جعله ينوع بمرادفات الوطن، فنراه يعدد البلدان؛ ليكتسب منها مزايا وصفات يضفيها لمن يشغل فكره ووجدانه ومن ذلك في قوله :

يا أنتِ يا دنيا الله

وسراجُ القَدْرِ

عراقيةٌ أنتِ

عصرية الهوى

واسطية الوجدان

خمرية النهز

كدجلة والفرات

مياهِكِ الجدلي

وما يستفيق فيها إلا شاعرٌ قال القصيد

وتعنى بأباريز الصورِ ،

وهو مسحورٌ بجمالِكِ الأخاذ

يا أحلى مواطن دنياه ،

وأعلى منازل المعاريح في السماوات السبع الطباق

يا أحلى مُستقرّ (الغرباوي ، 2022م، 298) .

فالحبيبة عراقية من جهة الانتساب وواسطية من جهة الإحساس والمشاعر ، وهو المسحور بجمال الحبيبة ، فنراه يتغنى بأباريز الصور إشارة الى جمال الحبيبة، ثم يجعل منها أحلى مواطن دنياه مستشعراً الاستقرار معها والعيش في ربوعها حياةً سعيدة، طالما قلبه يهجس بحبها وناظره يتمعن في جمالها ، وقلمه يسكب حبر توفقه إليها .

أما قصيدة (بسيشة) التي يقول فيها :

أروس مازالَ ينعمُ بزيارتِكِ كلَّ ليلةٍ ،

وهو يُقدِّمُ زهورَ الياسمين

تفانياً بالمودةِ على الرغمِ من اشتداد المِحَن والمصاعِبِ

إلاَّ أنَّه أثرَ أنْ لا يُميطُ عن وَجْهِه اللثامَ لرؤيتهِ ومعرفةِ هويتهِ ،

إنَّه الحبُّ في زمنِ الأحرارِ التي تهالكَتْ

من صديدِ نقائها ، وما زالتْ هي تحملُ إليه الحياةَ بتوقه إليها

على الرغمِ من محنتها التي أسرتْ خافقها

لما ينبضُ به من جميلٍ وفائها ،

لكنْ محنتها، هي حلقةُ الأعرافِ التي أزهقتْها شعاراتُ الاستعبادِ ،

وقد تَطَوَّفتْ بها في فضاءاتِ مدائنِ الأحرارِ القصيَّة(الغرباوي ، 2022م ، 157).

فأوروس هو ذلك الأسطوري الذي عشق بسيشة وأسكنها قصرأ ، وبات يزورها ، فلما أرادت معرفة هويته غادرها وراحت تبحث عنه في كل مكان (حرب ، 1999م ، 106) ؛ ليشير الشاعر عن استعباد العشق لخافق المحبين، كما هي بسيشة في عنائها؛ ولعل فضاءات مدائن الأحرار تشير إلى ضياع الأمل بالحبيب دون لقياه مرةً أخرى .

فالشاعر يلج على المدينة بوصفها هي مكان الاستقرار والرقود للراحة ، لكنه يعيش الضياع بالفجوة التي تركها الحب في داخله على ما يبدو .

وفي نص آخر نراه يقول :

يا سيّدي

يا أنتِ الحاضرُ والماضي

المستقبلُ ...

كلُّ فرائضِ أوقاتي

وهل إلا مدائنك ترسم لي موجاً بحرياً

يقتاتُ شتاتي (الغرباوي , 2022م ، 256) .

إذ يسم محبوبته من أنها الماضي والحاضر والمستقبل، ثم يتساءل عن مدائنها التي ترسم له موجاً بحرياً
يقتات شتاته ، إشارة إلى عالم الحبيبة الجميل الذي يمنحه الأمان والاستقرار والحياة الهانئة .

والشاعر في أحايين يظهر الحبيبة من أنها مقدسة، فيقول :

سيّدي الكريمة الماجدة الأنيفة الأمانة ؛

ليشهر الناقوس في معبدك رنينه ،

ولينطفئ في خلوة فناره

لازلت يا ماجدي ... الليل والنهار

وجوهرأ أعراضه الياقوت والأماز ،

وما تكنه المحارة

فمن يديك تولد الحضارة ،

وعند باحتيك تعزف الأوتار والقيثارة

لازلت من روعتك أريد اسم الله

وأحتمي ببيتك (المحراب والمنارة) (الغرباوي , 2022م , 118 - 119).

إذ يصفها بأنها الماجدة الكريمة والأنيقة والأمينة ، حتى يأمر الناقد أن يشهر في معبدها رنينه، إشارة إلى استمرار العبادة فيه، فهي الناسكة المتعبدة، كما وصفها بأنها الليل والنهار وهي الجوهر الذي أعراضه الياقوت والألماز ، وقد شبهها بـ(إنانا) خالقة حضارة بابل (السواح , 2001م , 155) ، كما أنها إلهة الفن فمن روعتها نرى الشاعر يردد اسم الله ، بينما يحتمي في بيتها الذي يمثل المحراب والمنارة ، بوصفه وطناً للأتقياء الذين ينزرون أنفسهم للمقدس . ما جعل الشاعر يرسم صورة ما يمت إلى الجلال بوصف موطنها من أسمى وأجلّ الأوطان .

أما في قصيدة (أنت حياة) التي يقول فيها :

أتيتُ إلى دارتكِ أطلبُ الحُبَّ

من قلبكِ الحنون .

يا قلبي ، يا أنتِ

وهل مثلكِ امرأةٌ ،

نشأتُ إليها ، نُعمدُها بماءِ شوقنا

بالسُّكرةِ الوداعة .

حبيبتي ، واشتقتُ إليكِ

كما يشتاقتُ العاشقُ الولهان ، وهو يذوبُ طرباً بمن يُحبُّ

يا بادعة (الغربوي , 2022م , 271-272) .

فالشاعر يخاطب الحبيبة من أنه أتى دارتها يطلب منها الحب؛ لأن قلبها حنون ، فهو المشتاق إليها ويزوب في عالمها ولعل الدار تمثل السكن والموئل الحسن الجميل الذي ينبض بالحياة .

ويبدو أنّ هذا النص من النصوص السردية الذي جسد فيه الشاعر قدرته الفنية مسترسلاً بمشاعره تجاه الحبيبة، وهو يصفها؛ ما يجعل مشاعره تتداخل مع بعضها، أي اختلاط الاشتياق والتعميد والسكر والوداعة والذوبان والطرب ما يفعم الذائقة برغبة التفاعل مع النص (الشهيد، 2015م، 44) .

وفي قصيدة بساط الريح يذكر مدينة الحبيبة التي تطوّف حولها ببساط الريح الذي اتخذته وسيلة للوصول إليها ، فيقول :

رَحَّبْتُ به عندما حانَ الرحيل ، ورحبَ بي ؛

لأني اخترتُ مدينتكِ الثلجية السهول

والكوكبيةَ الحقول ،

والبنفسجيةَ الأهواز .

باسقة النخيل

والمتمرة الأشجار (الغرباوي ، 2022م ، 303-304) .

نراه يستحضر مدينة الحبيبة وموطنها؛ واصفاً الجمال الباذخ فيها، فما هي إلا مدينة سحرية ذات حقول كوكبية، وأهوار بنفسجية، ونخيل باسق، وشجر مثمر؛ ليعلمنا أنه عشق امرأة تكاد تعيش في عالم هو غير عالمنا ماجعله يبحر في مدينتها؛ وهو يتمتع بحلاوات العشق ووميض العيون حتى أنّ بساط الريح رحّب بنقله إليها .

ثم يواصل مسيرته للحبيبة. والنص هو قصة شعرية نظمها الغرباوي من عالم الخيال حتى أدخلنا بسفر العجائبية والغرائبية، وكأنه يتطوف بنا في عالم ألف ليلة وليلة، فيقول :

حينما طفتُ حول قصرِكَ المهيب دورتين ؛

ولابدَّ لبساط الريح أن يجدَّ الدوار

حول بهائكِ الأمين

وأينَ من بهائكِ

يجدُّ المحبُّون دونه من فناء .

وجَّهتُ وجهتي إلى شبَّاكِ دارتكِ

المفتَّحة أبوابه

حينما شمنتُ عطركِ

-يامعذّبتِي-

في الهوى

وليس من خيارٍ إلا أن أدخلَ غرفتكِ زاهية الأضواء

وليس لغيركِ يا محبوبتي

تنبليج الأنوار (الغرباوي ، 2022م، 305 – 306).

فراه ينتقل من مدينتها، ثم يتوجه إلى قصرها المهيّب، فيدور حوله دورتين؛ ليستطلع منافذ القصر إليها؛ ليجد أبواب نافذة غرفتها مُفتّحة بينما العطر ينفث منه ما جعله يدخلها، ولعل القصر والغرفة كليهما موطن الحبيبة التي أضفت على مشاعره أضواءً من الرقة والفرح؛ ليوضح لنا أن موطنها من أجمل المواطن التي تبعث في الروح الحياة والطمأنينة والمتعة على الرغم من عذاب الشوق لها .

ومن هذا نرى أنّ موتيف الوطن شكل معاني متعددة في نزعة الشاعر الرومانسية ومنها الضياع، وصورة أخرى مثلّ الموتيف الاستقرار، كما شكّل المكان المقدس لقدسية الحبيبة وانتمائها إلى أنوار الشعور الصوفي، كذلك مثل موطن السحر والجمال، فضلاً عن موئل الحب والتغني بملاذه الحسن .

الخاتمة

ما يلي أبرز نتائج البحث :

- 1- الموتيف في شعر الغرباوي تمظهر في عدة صور، لما له علاقة بالجانب النفسي والفكري لدى الشاعر ما أنتج جملة موتيفات، اختصت بالوطن ماجعل الدراسة تسلط الضوء على تلك الموتيفات، وهي تحمل معاني منشطية بوصف اللفظة بوجهها السياق الذي ترد فيه .
- 2- أكدت الدراسة على تناول الموتيفات ليست المتكررة لفظاً، إنما تناولت المترادفات بوصفها موتيفاً؛ كونها تحمل دلالة الموتيف المتكرر نفسه .

- 3- تضيء الموتيفات الجوانب النفسية لدى الشاعر وتزيد تراكماتها إذا ما تكررت في النص ذاته ، في حين تتباين الموتيفات حينما تتفرق في أكثر من نص؛ لتعدد المواقف والتجارب إلا أنها جميعاً تؤول لدلالة مركزية لكنها في الوقت ذاته تحمل دلالة الموقف والمضمون الذي تنتمي إليه .
- 4- تناول في القسم الأول موتيف الوطن من منظور سياسي، فأظهر عمق شجب الشاعر؛ لما يؤول إليه الوطن من استلاب ونهب خيرات، فضلاً عن أنه أظهره طعيماً ، وتارة ممزوجاً بدماء الشهداء ، كذلك أظهره على الرغم من أنه طعين إلا أنه يتسم بالقوة والكبرياء .
- 5- أما القسم الثاني فقد شكل موتيفاً اجتماعياً، أخذ صوراً متعددة، منها المنزل الجامع للحب والحنان مع الأخوة، ومن هم قرييون على قلبه، والآخر الأثر الذي أطاح بالوطن وبأبنائه، وفقدان الحرية، وقد مثل صورة الحزن الذي ذرف دموعاً على أبنائه ، كما أنه مكان لإقامة الشعائر.
- 6- وفي القسم الثالث شكّل موتيف الوطن عدة دلالات لما أَلَمَّ بالشاعر من نزعة وجودية تجاه شعور الضياع ، إذ عدّ الوطن موطناً للاغتراب، وأزمة الوجود، فضلاً عن ألمه تجاه قضايا وطنه الذي أرفقته الملمات، وما محنة الوطن إلا الضياع بعدما تراكت مشاعره؛ لتؤجج الأحداث التي أطاحت به .
- 7- بينما القسم الرابع تناول موتيف الوطن بوجهة رومانسية، إذ شكل معاني متعددة في نزعة الشاعر الرومانسية ومنها الضياع ، وفي صورة أخرى الاستقرار، كما شكل المكان المقدس لقدسية الحبيبة وانتمائها إلى أنوار الشعور الصوفي ، وقد مثل أيضاً موطن السحر والجمال ، فضلاً عن موئل الحب والتغني بملاذه الحسن .
- 8- أفرزت الدراسة أن لفظة الوطن تكررت بكثرة في الموتيف السياسي لعلاقة اللفظة الحميمة بالسياسة، بينما تنوعت ألفاظ الوطن في الموتيف الرومانسي، إذ وردت مرادفات الوطن بتسميات عدّة منها : المدينة ، والدار ، والمنزل، والقصر وجميعها تشير إلى موطن الحبيبة، وما يمت لها بصلة .

المراجع

- أدرشوب، محمد علي، الجواهري في إيران ، المستشرارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية ، بغداد – العراق ، ط1 ، بيروت – لبنان ، 2022م .
- إسماعيل، عز الدين الشعر العربي المعاصرة (قضاياها وظواهره الفنية)، دار العودة ، بيروت ، ط1، 1972م.
- أطيّمش، محسن، دير الملاك، منشورات وزارة الثقافة والإعلام – بغداد ، ط1، 1982م .

- أمين، جمال جاسم تحولات النص الجديد ، استبصار فني تاريخي في شعرية أجيال ما بعد السبعينيات في العراق ، سلسلة ثقافية شهرية، تصدر عن دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط1 ، 2010م .
- بوقرة، نعمان، لسانيات الخطاب مباحث في التأسيس والإجراء ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط1 ، 2012م .
- الجنابي، جمال خضير، الأسلوب واللغة في قصائد فوزي الاتروشي دراسة تحليلية، دار عدنان , شارع المتنبى, بغداد , 2014م .
- حرب، طلال، معجم أعلام الأساطير والخرافات ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط ، 1999م .
- حقيظ، عمر، الكتابة وبناء الشعر عند أدونيس، دار الساقى، بيروت، لبنان، ط1 ، 2015م .
- زكريا ابراهيم، الفنان والإنسان، مكتبة غريب , الفجالة , مصر، دت .
- السواح , فراس الأسطورة والمعنى دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية ، منشورات علاء الدين, دمشق، ط2، 2001م .
- عرايدي، نعيم، البناء المجسم – دراسة في طبيعة الشعر عند محمود درويش, عكا, مؤسسة الأسوار , ط1، 1991م .
- الغرباوي، رحيم، الكون الشعري وفضاءات الرؤيا , سياحة في تجربة يحيى السماوي الشعرية، دار الينابيع للطباعة والنشر , سوريا , ط2 ، 2022م .
- الغرباوي، رحيم، مزامير أورفيوس، دار المتن ، بغداد ، ط1 ، 2022م .
- فتوح, محمد، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ، أحمد ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، 1978م .
- الكعبي, حيدر محمد ، العولمة ، المنشأ والمنجز والمأل ، العتبة العباسية المقدسة ، النجف ، ط1 ، 2022م .
- مغنية، حبيب يوسف في الأدب الحديث والثقافة ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2010م .
- الملائكة، نازك قضايا الشعر المعاصر, دار العلم للملايين، بيروت, 1983م .

الدوريات :

- بلاوي، رسول، موتيف الاغتراب في شعر يحيى السماوي، مجلة العلوم الإنسانية، طهران جامعة،
تربيت مدرس، ع 19 ، 2012م .

- بلاوي، رسول، موتيف النهر، مجلة الباحث، مجلد : 13 ، ع 1 ، 2021 م .

- مرضية، آباد، و بلاوي، رسول رسول موتيف استدعاء شخصية أبي ذر في شعر يحيى السماوي، مجلة
دراسات النقد والترجمة في اللغة العربية وآدابها، ع 3 ، السنة الأولى ، 2012م

الرسائل الجامعية :

- الأوسي، سلام، الرؤيا والتشكيل في الشعر العربي المعاصر ، أطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد - كلية ابن
رشد , 2000م .